العبقرية والفنون الجميلة

الموسيقى

٢

ان قيمة الانسان في الحياة بشعوره . والمتفنن اكثر الناس شعوراً . والموسيقي اقوى المتفنين شعوراً . ان الشعور سبب سعادتنا وشقائنا . ان الشعور مصدر قوتنا وعجزنا . ان الشعور المصحوب بالمعرفة نعمة من اعظم النعم. ان الشعور المحروم صاحبه من المعرفة نقمة من اعظم النقم . ان ذا الشعور المحروم من المعرفة كالسجين لا يدري الى متى يمتد زمن تعذيبه . ان الشعور جُرح في النفس لا يندمل . وقد استدعى ذو الشعور امهر الاطباء فعجزوا عن مداواته

ولكن الموسيقى وحدها هي البلسم الذي يسكن الم ذلك الجرح وان كان لا يبرئهُ

ان الفنون الجميلة ما عدا الموسيقى لا توجد الا في اماكن معينة ، في القصور الشامخة ، والمتاحف الفنية حيث تقتنى بدائع الصناعات وعجائب الطرف

ولكن الموسيقى توجد في كل مكان وفي كل زمان

ان الفنون الجميلة تشغل ركناً في حضن الطبيعة ولكن الموسيقى تشمل الطبيعة باسرها

ان لنا في دوي الرعد ووقع المطر وهدير الماء وهبوب الرياح وانفجار البراكين وزئير الاساد وتغريد البلابل وصفير العصافير وبكاء الطفل وانتحاب الثكلى وقهقهة الثمل ووقع حوافر الخيل وصدى صوت العجلات ونواقيس الكنائس انغاماً مطربة تهيج في النفس عواطف لا تعد ولا تحصى وتمرض على ذهن السامع مناظر عجيبة تملأها رعباً او رهبة او سروراً او حزناً . وطالما سمعت اصواتاً في الغابات من هبوب النسيم وحفيف الاغصان وتساقط الاوراق وصوت زحف الحشرات التي ترى والتي لا ترى هاجت كلها في نفسي ذكريات حلوة وفتحت لها نوافذ آمال بعيدة المدى

اجل ! ان الموسيقى سيدة الكون فقد ادعى بعض الفلاسفة ان الاجرام السماوية تسير بانتظام حسابي مطيعة في سيرها الابدي قانون الانسجام الموسيقي . وانهُ لولا هذا النظام وذاك الانسجام لاختلَّ ميزان الوجود واعتلت دورة الافلاك

ان الموسيقى وهي ام الاصوات آبت الاّ ان تسود حتى السكون : الم يسمع احدكم صوت السكون La voix du silence اذا انتصف الليل ووقفت حركة الكون في الظاهر واخذ الكرى يعاقد اجفان الناس وسادت سكينة تسيح حول المكان الذي تجلس فيه فانك لا تلبث طويلاً حتى يستأذن على سمعك صوت خفي سحري يكون خافتاً في البداية ثم يرتفع شيئاً فشيئاً حتى يملك عليك جميع حواسك تطالبه بدقات قلبك تارة وبترديد انفاسك طوراً ثم تُغلب لهُ رغم ارادتك تستولي عليك رهبة من ذلك الصوت المجهول ثم تطمئن اليه وتسري في شرايين نفسك انغام ساكنة هادئة فتبقى باهتاً كانك خاضع لفعل السحر او كانك سكران بخمر روحانية وبعد ان كنت واجماً قلقاً تصير هادئاً منبسطاً . وهذا هو صوت السكوت !

ان البطل المغوار يفتح البلاد ويقهر الممالك. ان السياسي المحنك يدير شؤون الدولة. ان الطبيب الحاذق يشفي الناس من الادواء . ان الخطيب المفوه ينقل الى الذهن اجل المعاني بابلغ بيان . ان المهندس الماهر يجري الماء ويحيي موات الارض . ان الفيلسوف يحاول حل لغز الوجود

ولكن الموسيقي يفعل بصوته او قيثارته عملاً اعظم من اعمال كل هؤلاء جميعاً . لولاهُ لما فتحت البلاد ولا دبرت الشؤون ولا برئت المرضى من علتها ولا خطب الخطيب ولا سمعهُ الجمهور ولا جرت انامل المهندس بخط الانهار ولا قابل الحكيم لغز الحياة بجأش ثابت وعزم وطيد

ان الموسيقي يهون على جميع الناس عبء الحياة . ان الموسيقي يزيد الحياة جمالاً . ويمحو من سجلها سطور الحسرة والالم

انا بعد ان نسمع انغاماً مطربة كانت او مشجية منيرة كانت او مسكنة . نشعر بتغير في شخصيتنا . تنظر الى الحياة بعين جديدة ونرى في افعال الناس واقوالهم مقاصد ومعاني لم نكن ندركها من قبل . ان الموسيقى تفتح من اذهاننا ماكان مغلقاً وتنير من زوايا قلوبنا ماكان مظلماً وتنعش من توانا ما كان هامداً وتوقظ من عزائمنا ماكان خامداً وتبعث من امانينا ماكان غافلاً ويحيي من ذكرياتنا ماكان مشرفاً على الفناء

ان الموسيقى للانسان كالماء للزرع

لقد قامت في سائر الفنون قيامة المبادئ المختلفة فن فرقة تطاوع الخيال واخرى تقلد الحقيقة وفئة تنسج على منوال الطبيعة وغيرها تجعل همها في مسايرة الاوهام

ولكن الموسيقى دون سواها لم تكن عرضة للتقلبات لانها رمز للوحدة والثبات قد يتغير الموسيقيون ويتقلبون وقد تتطور مبادئهم وتتنوع طرائقهم ولكن الموسيقى ذاتها تبقى دائماً كالجوهر الفرد وكل ما عداها عرض

***

اننا في الوقت الحاضر عرفنا كل شيء او يخيل لنا على الاقل اننا عرفنا . حقاً اننا لا ندري معظم الاسرار العليا التي تسيطر على الكون . لا نعرف سر الحياة ولا سر الموت . لا نعرف كنه الكهربائية ولا حقيقة الاثير . نجهل ماهية المادة ونقف حيارى لدى معنى الروح ولكن فضلنا على الاقدمين اننا لا ندري وندري اننا لا ندري . نعلم ان هناك اسراراً لم يتسن لنا ان نكشف عنها القناع وقد تبقى محجوبة عنا الى ان ينتهي أجل الانسانية وتطوي الطبيعة صفحة الارض ولكن اذا انقضى هذا العالم فان بعض العقول القوية التي احتكت به اثناء حياتها المادية تكون قد وقفت بالغريزة تارة وبالالهام طوراً وبالذكاء مرة وبالتجاريب اخرى على الفرق بين المعلوم والمجهول وهذه خطوة واسعة جداً في سبيل العلم الاعلى . اتعلمون كم شتى الانسان في هذه السبيل وكم مرة اقترن سعيه بالخيبة والفشل . ان تاريخ الانسان منذ حوّل نظره نحو شمس المعرفة هو تاريخ ارتداد وتقهقر وحسرة

لقد كانت حسرة الانسان عظيمة لدى عجزه الى درجة ان عجزه صار قوة . واعظم مظهر من مظاهر هذه القوة التي منشأها ذلك العجز المقدس كانت الموسيقى . ان الموسيقى هي أمل الانسانية الحائرة وصرختها الخارجة من اعماق نفسها الثائهة وآهتها الخفية التي تخرج من ثنايا صدرها الضائق ، لقد ضاق صدر الانسانية من عجزها ولكن لسانها انطلق فكانت الانغام

ان الموسيقي وحده دون غيره من المتفننين يهتدي الى اصوات تعبر عن انواع الآلام ويمثل لنا بفنه حالات النفس المعذبة ويسمعنا صوت الردى وهو يودي بالارواح والاجسام . ويتناول الطبيعة بانغامه فيظهرها لنا بسحره وهي في النزع لدى فصل الخريف فشمسها غاربة وامواهها ناضبة وطيورها واجمة والوانها قاتمة واشجارها جرداء واوراقها صفراء . ويتناول النفس الانسانية وهي أشد ما تكون حزناً وأعظم ما تكون حناناً واشمل ما تكون لوعة وأعمق ما تكون يأساً لدى فراق الحبيب فيمثل لنا

النفس وهي تجرع كأس الاسى مزوجة عمالهُ بقطرة من رحيق الهناء ويتناول النفس وهي في حالة تشبهُ الشفق وقد اشرفت آمالها على المغيب . يتناول النفس وهي كالطير المقصوص الجناح عملاً مُ رغبة الطيران لانهُ مخلوقٌ للفضاء الرحب ومطبوع على التحليق في اعلى طبقات الجو وتقصد به ضرورة العجز لانهُ تعوزهُ ادوات الطيران . يتناول النفس وهي في حالة الحنين الى الماضي والخوف من المستقبل تحنّ الماضي لا لانهُ كان سعيداً انما لانها عرفتهُ والنفس لحيرتها وعجزها تطمئن الى ما عرفت وتخشى المستقبل لانها تجهلهُ وكل مجهول لديها محفوف بالمكاره والمخاوف

يتناول الموسيقي النفس في كل تلك الاحوال فيخرجها لنا انغاماً ذات الوان فيملأ نا حزناً وفرحاً وحسرة وغبطة ويقتلنا عجزاً ثم يحيينا قوة

تبارك الموسيقي اقدر المتفنين !

ان المتفنن العبقري لاسيما اذا كانت الموسيقى فنه محتاج ابداً لان يكون عملاً . ان السكر المعنوي شرط جوهري وحاجة فطرية لانهُ يثير الغرائز ويشحذ سلاح المواهب الكامنة وبدون السكر المعنوي لا حياة للمتفنن . واول واعظم واقوى انواع السكر المعنوي المحتاج اليهِ المتفنن حب المرأة فهو باكل معانيهِ خمر المتفنين المتقة هو راحهم ورحيقهم . اعطني حبًّا اعطك فنًّا لان الحب وحدهُ يجيو المتفنن بشعور القوة وشعور القوة لازم للوحي والالهام . ان الحب اعظم مظهر من مظاهر الارادة الانسانية لان بهِ تبلغ النفس غايتها من النفوذ والقوة . انا بالحب وما يصحبهُ من العواطف نقوى على المجازفة في الحياة وتهون في نظرنا اكبر المخاطر . انا بحب المرأة نفتح الابواب المقفلة وندخل القصور المسحورة ونطل من نوافذ لا يستطيع النظر منها الاَّ الحيارة فنبصر بعالم جديد لا تراهُ الاَّ الآلهة

انا بالحب نقاسي عذاب النار المحرقة ونذوق لذات النعيم الدائم

ان الحب يجعل من الرجل الابله حكيماً ويزيد الحكيم التحرير حنكة . والحب هو الذي يحرك دولاب النفس ويخرج الانغام التي تجعل لنا لذة الحياة وتقوي ساعدنا على رفع النقاب عن وجه الحقيقة

***

قد يتساءل الناس عما يجعل الموسيقى افضل الفنون الجميلة واشرفها ولماذا يكون

الموسيقي الحقيقي من امثال ماير بير وفردي ووجنر ويتهوفن وباك متفنناً عبقريًا . والجواب عن هذا السؤال سهل لمن يمعن النظر . تأملوا قليلاً تجدوا ان سائر الفنون الجميلة تحتاج في بروزها وظهورها الى المادة فالنقش والنحت والبناء لا يظهرها الا المادة والحجارة. فنحن لا نستطيع صنع صورة بغير مجموعة كبيرة من الالوان واجزاء من الخشب او القماش كذلك لم يقدر ميخائيل انجلو ان يصنع تمثالاً من غير صخر ولم يشد الاغريق في عهد بركليس مبانيهم الفخمة بغير حجارة

ولكن الموسيقي يظهر فنهُ في اسمى درجاته واجل مظاهره بغير مادة . ان الاثير وحدهُ هو الذي ينشر موجات الصوت وينقل اهتزازات الانغام الى الآذان والموسيقي يستطيع بصوته الفطري ان يبكينا ويضحكنا وان لجأ لاوتار القيثارة او مفاتيح البيانو فما ذلك الا لاخراج الاصوات فالاوتار والمفاتيح غلاف والاصوات أعراض والانغام جواهر ففضل الموسيقي على سائر الفنون هو كفضل الروح على المادة

ثم انا اذا تأملنا سائر الفنون الجميلة كالنقش والنحت والعمارة رأينا انها انما تعبر عن افكار وخواطر ولكن الموسيقي وحدها تعبر عن العواطف

النقش يعطينا صورة كليوبطرة . والنحت يعطينا تمثال مترقا الهة الحكمة . والعمارة تعطينا هيكل الكرنك وقصر انس الوجود

فننظر الى تلك الاشياء الجميلة ونعجب بها ولا نزيد . لان فن صناعتها مهما كان عظيماً لا يستطيع ان ينقل نفوسنا الى درجة ارقى من الاعجاب بالشيء المرئي . لان هذا الفن محدود بالمادة اولا وباشكال معينة هي في ذاتها منشأ اعجابنا وموضعهُ . واذا انصرفنا عن هذه الاشكال بالذات اضحنا فن المتفنن . ولكن الموسيقي وحدها دون سواها بما لها من القوة الروحانية وخلاصها من شوائب المادة وقيامها بذاتها واستغنائها عن الاشكال تراها قادرة على التعبير عن العواطف

لا يستطيع تمثال رمسيس الضخم الراقد الآن في فدان من أرض البدرشين تظلهُ ماثة نخلة لو اننا موهناهُ بالذهب ورصعناهُ بالجواهر ونصبناهُ في اجمل بقعة من الارض لا يستطيع هذا التمثال مع كل ما يحيط بهِ من الذكريات المجيدة وما يدخلهُ على النحن من الدهشة الا أن يحرك فينا الاعجاب بضخامة الصخر واقتدار الصانع

ولكنهُ لا يستطيع ادخال السرور او الحزن على نفوسنا

على انّ حزة واحدة من قوس تمثيل على اوتار تكاد تكون نرقتها رموزاً . تفعل بالنفس ما عجز عن فعله ذلك التمثال الضخم. لان الموسيقى وحدها من بين سائر الفنون تخلق في نفسنا العواطف. هي تفرحنا وتبكينا وتدعونا بحنان ورفق ورغبة نحو الحب وتدفعنا بقسوة وشجاعة نحو الحرب

ان الموسيقى وحدها تستطيع ان تغير حالات النفس من صفو الى كدر ومن كدر الى صفو من امل الى يأس ومن يأس الى امل من غبطة الى غم ومن غم الى غبطة . هي وحدها يدهاسكرنا وسحرنا راحتنا وقلقناسعادتنا وشقاؤنا لانها قادرة على ايجاد العواطف

وبزداد قدر الموسيقى في نظرنا اذا عرفنا ان العواطف هي المسيطرة على الحياة فلا قول يقال ولا فعل يتمّ بدونها . حللوا اقوالكم وافعالكم في اي وقت من اوقات حياتكم تجدوها راجعة جميعها وحيزها وسببها جليلها وصغيرها الى العواطف

لولا العواطف لم يوجد الامل ولولا الامل لم توجد الحياة

دعونا من الذكاء والفصاحة مهما كان الذكاء شديداً فهو خيال العواطف ضعيف عاجز . ان اقوى الناس عقلاً قد يكون اسير اقل النساء شأناً بقوة العواطف وافصح الخطباء لو لم يحرك عواطف سامعيه بقوة عواطفه لن تترك فصاحته في النفوس اثراً

ان الفنون الجميلة ماعدا الموسيقى تلمس النفس لمساً سطحيًّا. ولكن الموسيقى تخترق اعماق النفس

ان الحياة محكومة بقوة الارادة والارادة سيدة الكون وجوهره وروحه

وكل كائن روحاً كان او مادة انما هو مسيَّر بقوة الارادة العليا التي نرى مظاهرها ولا نعلم كنهها

وغاية الفنون الجميلة ماعدا الموسيقى تمثيل مظاهر الارادة العليا تمثيلاً عاديًّا

ولكن الموسيقى وحدها هي التي تعبر تعبيراً مباشراً ومحسوساً عن الارادة العليا ذاتها فهي لسانها الناطق وصوتها الصارخ واثرها الظاهر . ان الموسيقى هي قوة القوى وعاطفة العواطف وهي اقدر قدرة في الطبيعة واعظم مظهر للحياة

محمد لطفي جمعه المحامي